

تحديات في وجه اللغة العربية التبشير واللغة العربية الأستاذ أنور الجندى

(القاهرة)

واجهت اللغة العربية منذ أوائل العصر الحديث تحديات خطيرة جائرة من خلال النفوذ الاستعماري الذي سيطر على العالم العربي ، ورأى في اللغة العربية عاملًا من العوامل الخطيرة التي تعارض ثبيت قواعده . ومن هنا فقد هدم النفوذ الاستعماري إلى معلمين خطيرين :

أولهما : تجميد اللغة العربية من التوسيع في العالم الإسلامي
ثانيهما : توسيع نطاق اللغات الأجنبية وتشجيع الهجرات المحلية
وقد كان المخطط التبشير الذي تشهد له الاستعمار في العالم العربي أثره الواضح في هذا المجال

الدعاة إلى العامية ومدير دار الكتب بالقاهرة يختار أن يعيش في حي وطني « لكي يستقرى العامية من منابعها الأصلية ولا يدون إلا ما يسمعه » ثم يدون ما يسمعه باذنه على كم قيمته خوفاً من أن يلاحظه أحد المتكلمين فيفقد طبيعته وحرفيته في الكلام »

وقد شغل مدد من هؤلاء الإجانب بأمر « العامية » المصرية واهتموا بها ولفوا عنها وفي مقدمتهم ولهم سببها ، وكارل لولرس ، وسلدن ولمور ، ووليم ويتكوكس . وقد بدأ ذلك منذ 1880 واستمر حتى عام 1926 تقريباً .

وفي خلال ذلك كان لطفي السيد وقاسم أمين وسلامة موسى قد حملوا لواء هذه الدعوة لم يصل ذلك بالدعاة التي دعاها عبد العزير فهمي عام 1941 عندما نادى بالكتابة بالحروف اللاتينية هذا في مصر وفي الغرب تولى كولان ومن بعده ماسينيون لواء هذه الدعوة وفي لبنان ظهر كثير من الدعاة إلى الحروف

فقد وجه التبشير إلى اللغة العربية حملة ضخمة قوامها حقيقة أساسية هي أن القضاء على القرآن مصدر الإسلام وقانونه الإسلامي يتطلب القضاء على اللغة العربية الفصحى ولما كان التبشير والنفوذ الاستعماري لا يستطيعان أن يكشفان هذه الحقيقة مراجحة فانه اخفياها وراء كل خطوة اتخذها بشأن الدعوة إلى العامية أو مهاجمة اللغة العربية وانتقادها أو الدعوة إلى الكتابة بالمعروفة اللاتينية .

وتكشف جميع النصوص التي بين أيدينا على أن هذا الفرض الدفين واضح في مقل كل من يتصدى لهذا الفرض ، ويبعد خطر الدعوة إلى تعليم اللغة العربية وافتتاحاً حينما نرى أن مددًا كبيراً من المبشرين والمستشرقين قد تصدوا للكتابية في هذا الموضوع واتقاوموا من أنفسهم خداماً لهؤلاء الغابة لا يرون بأساً في التخلف وتغيير شخصياتهم في سبيل تحقيق ما يريدون ، حتى أن « ولهم سببها » أول

لغة اساليبها وطرائفها فاساليب التفكير وطريقة النصور خائعة للاساليب التي يتألف على مقتضاهما الكلام في اللغات المختلفة ومن هنا يتفق ويشابه ابناء كل لغة ويختلفون عن ابناء كل لغة اخرى ، وهذا هو الفرق بين الانجليزي والفرنسي ، وما بين الانجليزي والمهدى ٠

وتميز اللغة العربية في هذا المجال من اللغات الأخرى بان لها « كتابا » هو رسالة السماء الى المسلمين ، ومن هنا في ترتيب بعد الجماعة العربية التي تتكلما بجماعة اخرى تزيد خمسة اضعاف من المسلمين الذين يجدون في هذا الكتاب لغة دينهم ولغة ثقافتهم ، ومن هنا فقد اصبحت اللغة العربية بهذا الوضع مكان فريد وخطير كان على الاستثمار ان يواجهه بحزم فحيث يذهب الاسلام تذهب اللغة العربية ، ومن هنا فقد مدد الاستثمار الى تمجيد اللغة العربية في مختلف بلاد العالم الاسلامي التي سيطر عليها واعان لغته الاجنبية على السيطرة ، كما خلق من اللغات المحلية قوى يركز عليها لمحاربة اللغة العربية ٠

ومن هنا وفي سبيل اقصاء القراءان من ثقافة الامم المسلمة سيطر النفوذ الاجنبي على وسائل التعليم وادارتها بلفته التي اصبحت هي اللغة الاولى في كل قطر محتل ، واجرى تمجيد المعاهد الاسلامية الخالصة كالازهر والقرقيز وقد اشار المبشر الاكبر « زوبير » الى خطورة اللغة العربية حين قال :

« ان اللغة العربية هي الرابط الوثيق الذي يجمع ملايين المسلمين على اختلاف اجناسهم ولغاتهم » وكان هذا اشاره الى ضرورة العمل على هدم اللغة العربية الفصحى التي هي لغة القراءان ٠

وهذا هو المعنى الذي تلقت اليه المرحوم مصطفى صادق الرايسي في حملته على لطفي السيد ودماء الشسوية بين العامية والفصحي ، فقد كان الرايسي يعرف ان الهدف من ذلك هو احلال « لغة وسطى » قريبة من العامية لتكون لغة الكتابة وبذلك ينتمي المسلمون عن لغة القراءان البليغة وبذلك يصبحون عاجزين عن فهم القراءان او التعامل معه وهذا ما يهدف اليه الاستثمار ٠

اللائنية والعامية اللبنانيّة ، وقد كان هدف هذه الدعوة التي حمل لوادها التبشير اساسا لخدمة مخطط السيطرة الاستعمارية الثاقبة ائمها يرمي الى تعزيز اللسان العربي في العالم الاسلامي كله وليس العرب وحده ، والقضاء على لغة القرآن كلية باحلال اللهجات العامية محل اللغة الفصحى في كل قطر وبذلك يتفرق عند الوحدة الجامعة التي كان قوامها هذا الكتاب المترول والذي حفظ وحدة اللغة العربية طوال اربعة عشر قرنا ٠

ويؤكد الباحثون ان اهتمام الاجانب بالعامية لم يكن من اجل البحث العلمي - ولا من اجل حاجتهم الى معرفة لمجات البلاد العربية التي تكتفى مصالحهم ان يعيشوا فيها - وتعاملوا مع اهلها واتما من اجل القضاء على العربية الفصحى واحلال العامية محلها (١) ٠

ومن الواضح ان هؤلاء الاجانب من المبشرين هم الذين وضعوا في مؤلفاتهم هذه الخطة الكاملة التي ما يزال يستنقى منها كل دماء الشعوبية والتغريب واتباع المستشرقين والمبشرين من ادعائات حول ما يصفونه بضماعة اللغة العربية ، وضمية العروف العربية ، واتهام اللغة العربية بأنها لا تستطيع مجارة العلوم الحديثة والفارق الواضح بين لغة الحديث ولغة الكتابة ٠

ولقد يدهش بعض البسطاء لاهتمام الاستثمار والنفوذ الاجنبي باللغة العربية بفتحة القضاء عليهما ، ولو علموا مكان اللغة العربية من الاسلام والثقافة وكيفية الامر لما دهشوا ، فاللغة هي روح الامة ومراجها ، وهي ينبوع ما عند الامة من المزاج الخلقي والشعور النفسي ٠

فلا تذكر الامة الا بلغتها ، والفرق بين الفكر وبين اللغة دقيق وخطير ، ولذلك كان القضاء على اللغة ائمها يراد به القضاء على روح الامة وافساده ٠

ومن هذا يقول المازني :

« ان الانسان لا يستطيع ان ينكسر الا باللغاظ نهي وحدها اداة التفكير فلا سبيل اليه بدونها ومن المستحب ان تمثل معنى مجردا من الفاظ معينة ، وكل

(١) كتاب تاريخ الدعوة الى العامية

انه يؤدي الى حصر العلم في طبقة ضيقة جدا من الامة ويقلل الامانة الاعفاء ويلاشي القدرة العلمية والفنية التي بلغتها البلاد بما يحيط هذه اللغة شيئاً فشيئاً .

ونصح المتر بذلت للمصريين والمغرب بان يحافظوا على لغتهم ودينه، فقال اذا اراد المصريون ان ينالوا استقلالهم ويحرروا وطنهم عليهم الاختلاف بما اختلفت به كل امة مخصوصة ، وهو « الدين واللغة » فان الامة التي تقبل لغة الغائب تشكل على نفسها الدل والطاعة العميم والامة التي تقبل دين من افتصب بلادها تخون شرفها الوطني

ولعل اخطر ما تحمله خطبة الفرو الاجنبي بالنسبة للغة العربية هو ما حاوله « ويلكوكس » من تأسيس للعافية والادعاء بأنها لغة خاصة مستقلة عن اللغة العربية وانها جاءت من لغة اخرى ماتت هي اللغة البونية ، فقد نشر رسالة عام 1926 بعنوان « سوريا ومصر وشمال الريقيا ومالطة تتكلم البونية لا العربية » : زعم فيها ان اللغة التي يتعلّمها الناس من حلب الى مراكش بما في ذلك مالطة هي اللغة الكنمنائية او الفينيقية او البونية ، كما زعم ان اللغة البونية التي هي اساس لغة الحديث عندنا لا صلة لها بالعربية الفصحى فقد دخلت مصر قبل ان تدخلها الفصحى بالف سنة وانها انحدرت اليها من المكسوس (١) .

وهذه محاولة جريئة وماكرة ومبطلة للقول بأن اللهجـة العافية هي لغة قائلـة بـدـائـها وـائـها كـانـت موجودـة قبل الاسلام والهدف من هذا هو تأسيـل الدـعـوة الىـ العـافـيـةـ لـنـ مـحاـوـلـةـ لـاحـلـالـهاـ لـغـةـ لـكـتابـةـ حيث يردد هؤلاء جميعـاـ العلاقةـ بينـ العـافـيـةـ وـالـعـارـبـيـةـ ويـقـارـنـوـهـاـ بـالـعـلـاـقـةـ بـيـنـ الـلـاـتـيـنـيـةـ وـالـلـفـاتـ الـأـوـرـيـةـ العـدـيـدـةـ وهـيـ مـقـارـنـةـ باـطـلـةـ وـمـضـلـلـةـ وقد وـدـدـنـاـ عـلـىـ هـذـهـ الـاـهـمـاتـ فـنـ كـاتـبـاـ «ـ اللـفـاتـ الـعـارـبـيـةـ بـيـنـ حـمـاـنـهاـ وـخـصـومـهاـ » .

والمعروف ان ويلكوكس كان من اكبر دعاة العافية وانه ترجم الانجليز بالعافية - كما ترجم بعض قطع

ومن اخطر دعوات التبشير والتغريب تلك الدعوى التي تحدث كثيراً من الادب الشعبي والفلكلور ولا يفهم الالحاح في هذه الدعوة الاجنبية الا حين نرى حيرة سبتيا وفولرس وولور ويلكوكس في البحث من ثقافة شعبية يريدون اسنادها الى المجلات العالمية وبذلك يستطيعون ان يقولوا انها « لغة » وشرط اللغة ان تكون لها ثقافة ومن هنا عدوا جميعاً الى جمع الاولى والازجال والحكم العالمية .

وقد جرت هذه الدعوة في الوقت الذي كان « دنلوب » يستولي فيه على مقايد التعليم في مصر ويضع النظام الذي يريد به تغريب العافية والانجليزية واختصار دراسة العربية وكل ما يتصل بها بعد الاحتلال .

لم جاء « سلدن ولمور » بعد الاحتلال فاضاف الى دعوة من سبقوه الى العافية - العمل على كتابة العافية بالحروف اللاتينية .

وأزرت مجلة المتنطف ويعرض الكتاب من خريجي الدراسيات والمعاهد الاجنبية هذه الدعوة ورددوا آراء هؤلاء التي تتلخص في الارة الشبهات من الخلاف بين لغة الكلام ولغة الكتابة وضرورة احلال اللغة الاجنبية في التعليم نتيجة الارتباط بالدول الاوربية .

وكان سعد زغلول « اول ناظر للمدارف المعروبة هو اكبر دعاة بقاء اللغة الانجليزية لغة عافية للتّعلم ، وقد استطاع الاستثمار والنفوذ الاجنبي به ان ينقل السهام الموجهة الى كروم ودنلوب الى قلب وزير مربي هو الذي تصدى لتحمل لواد الدناع من بقاء اللغة الانجليزية كأساس للتعليم وتجميد اللغة العربية .

وعارض هذا الاساس كبار قادة الصحافة والسياسة في هذه الفترة وفي مقدمتهم : مصطفى كامل ومحمد فريد وعلى يوسف وأشاروا الى مدى الخطير الناتج من هذا الاجراء . وكيف

(١) لزيادة التفاصيل راجع كتابنا (اللغة العربية بين حمايتها وخصوصها) وكتاب تاريخ الدعوة الى العافية .

تستمد مصادرها ودفامها وهجومها على الفصحى من هذه الكتابات التي وسّدت لهم مجال الدعوة الباطلة .

لشكسبير وقد وجدت هذه الترجمات ازدراء او احتقاراً كبيرين ولم يتقبلها أحد .

وكذلك فعل التبشير والاستشراق في كل جوانب الفكر الإسلامي هذا الفعل ، فادى وكيزة أساسية باقلام رجاله وسرره لتابعيه وخدماته الانتفاع بها وترديدها ولقد قرأت في الأعوام الأخيرة رسالة القبيت في أحدى المؤتمرات الغربية من العامية لا تكاد تخرج في مضمونها عن كلام ويلمود وويلكوس وان كانت بعرفة عربية وبتوقيع اسم هربى .

ولم تمر هذه العملات على اللغة العربية دون معارضة وتفنيده بل لقد واجهت هذه العملات ردود فعل قوية وكتب الكثيرون يفندون آراء لطفي السيد ورد عليه مصطفى سادق الرافعى ومبدى الرحمن البرتوقى ، وفند الدكتور احمد الحوقى آراء سلامة موسى وفند عبد الوهاب حزام وكثيرون آراء مبدى العزيز فهمى .

وما يزال يردد هذه الدعوى كثيرون في هذا الجيل من أمثال ميخائيل نعيمة وليوبىس موسى وسعيد عقل وسوف لا يكون رجاؤهم باكثر من رجاء من سبقوهم .

كما اجرى هؤلاء الاربعة (سيبتا ، فولرس ، ولوبر ، ويلكوس) محاولات متعددة للدعائى من العامية وذلك بادعاء القول بأن لها توافقاً محدداً .

وكان الهدف من هذه العملات المتواالية التي بدات 1880 - واستمرت الى 1926 واضحأ هو ليس فقط كما يقول بعض الباحثين الذين لم ينظروا الى الامور نظرة عميقة « فصل المسلمين والمغرب من ماضيهم وتقويت وحدتهم بل هو اكبر من ذلك واخطر وهو السر المكتوم في حنابا الصدور : القضاء على لغة القرآن واحلال لهجات تصبيع لغات فينطوي كتاب الاسلام الاكبر ويفقد خاصيته الكبرى وهي وحدة الفكر بين المسلمين .

ومن خلال هذه المخططات التي رسّها التبشير والاستشراق ، انبثقت دعوات لطفي السيد وسلامة موسى وعبد العزيز فهمي في مصر وبليرهم في لبنان (الملعون والخوري ومارون حمسن) - وما يزال كتابات دعاة العامية في مصر والعالم العربي الى اليوم

صدرت للاستاذ انور الجندي الموسومة الاسلامية العربية في مدة مجلدات نخصص بالذكر منها بعوننا حول الفكر العربي في معركة التغريب والتعميم الثقافية ومعالم الفكر العربي المعاصر والفكر الاسلامي والثقافة العربية ، ولسيادته ايضاً « معالم الادب العربي المعاصر » (1871 - 1939) .